

ابن باجة وآراؤه الفلسفية

الطبعة الاولى
1430هـ-2009
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

عفيى ، زينب
ابن بلجة واراؤه الفلسفية / زينب عفيى
ط1-القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2009،
480 ص ، 24 سم- (المكتبة الفلسفية)
تكمك : 8-438-341-977
1- الفلسفة الإسلامية
2- ابن بلجة ، محمد بن يحيى بن بلجة، 00-1139
1- العنوان

ديوى: 189.1

رقم الابداع: 13148

المكتبة الفلسفية

ابن باجة و آراؤه الفلسفية

الدكتورة زينب عفيضى

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة المنوفية

تصدير

الدكتور عاطف العراقى

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ

إهداء

إلى روح أبى العظيم
هل تصلك كلماتى ودعائى فى عالم
الخلود واللانهائية بعد أن افتقدتك فى
عالم التغير والنسبية؟
زينب عفيفى

شكر وتقدير

أتقدم بوافر شكرى وجزيل عرفانى
بالجميل لأستاذى الدكتور عاطف العراقى
الذى كان لى شرف التلمذة على يديه، وخاصة
فى إشرافه على هذه الرسالة ومناقشته لى
والذى كان له الفضل فى ظهورها الآن فى
صورة كتاب يحمل عنوان الرسالة.

كما أقدم خالص شكرى وتحياتى للزميلة
العزيزة الدكتورة سناء خضر، فلقد دفعنى
حماسها الشديد وحبها للفلسفة إلى طباعة
هذه الرسالة، كما أشكر لها جهودها العظيم
فى المراجعة والمتابعة حتى تظهر الرسالة كتاباً
منشوراً بين يدى القراء فى أحسن صورة.

تصدير

بقلم/ عاطف العراقي

أستاذ الفلسفة العربية

تحتل الفلسفة العربية في المغرب العربي مكانة كبيرة في تاريخ الفكر الفلسفي العربي عامة، وخاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن المغرب العربي لم يقدم لنا إلا ثلاثة من الفلاسفة بالمعنى الدقيق لكلمة الفلسفة أو التفلسف، وهؤلاء الفلاسفة كانوا معبرين عن الاعتزاز بالعقل، أشرف ما في الإنسان، إنهم ابن باجة وابن طفيل وابن رشد والذين أصبحوا فيما بعد رواداً للمدرسة العقلية الأندلسية.

غير مجدٍ في يقيني واعتقادي الخلط بين اتجاه واتجاه آخر من الاتجاهات التي نجدها عند هذا الفيلسوف أو ذلك من فلاسفة المشرق العربي كالفارابي وابن سينا، وفلاسفة المغرب العربي، نوضح ذلك بالقول بأننا إذا كنا نجد اتجاهًا عقلياً عند فلاسفة المغرب العربي، فإن هذا الاتجاه قد يختلف بصورة أو بأخرى عن الاتجاه الإشراقي المغرب الذي لا نعدم وجوده عند بعض فلاسفة المشرق العربي.

وعلى الرغم من بعض الدراسات الجادة والتي ظهرت في السنوات الأخيرة من أول فلاسفة المغرب العربي، ابن باجة، إلا أننا نجد نقصاً واضحاً في الدراسات عن هذا الفيلسوف الذي شق طريقه وسط الأشواك والصخور، وعاش في غربة، وأعلن الالتزام بالعقل والمعقول، وكانت فلسفته هادية ومرشدة ورائدة لعديد من الفلاسفة والمفكرين، سواء وجدوا في بلداننا العربية

كابن طفيل وابن رشد أو وجدوا في أزمان تالية في بلدان عربية وبلدان غير عربية، منهم من قضى نحبه ومنهم من لا يزال على قيد الحياة.

من هنا كانت سعادتنا بالغة حين نقدم اليوم كتاباً عن ابن باجة وآرائه الفلسفية وفي ذكرى مرور خمس سنوات على وقوفنا أمام محكمة الجنايات في قضية تتصل بالفلسفة الرشدية، فلسفة ابن رشد آخر فلاسفة العرب، الفيلسوف الذى تأثر تأثراً واضحاً بالرائد الأول للفلسفة العقلية في بلدان المغرب العربى ونعنى به فيلسوفنا ابن باجة.

والكتاب الذى نكتب اليوم تصديراً له قامت بتأليفه الدكتورة زينب عفيفى، وبذلت فى تأليفه جهداً، وجهداً بارزاً ملموساً يدركه الباحث المنصف. لقد كان هذا المؤلف فى الأصل رسالة تقدمت بها الباحثة زينب عفيفى للحصول على درجة الماجستير فى قسم الفلسفة بكلية البنات - جامعة عين شمس، وحصلت على تقدير ممتاز. وقد رأيت باحثتنا ضرورة إخراج الرسالة إلى عالم النور بعد أن ظلت حبيسة الأدراج سنوات طويلة زادت على العشرين عاماً. لقد طلبت منها ذلك لأننى كنت مشرفاً على رسالتها.

والدكتورة زينب عفيفى والتي تقدم اليوم رسالتها للنشر والطبع تتميز بحس نقدى واضح. إنها فى دراستها لم تكن مكتفية بترديد آراء ابن باجة وبحيث تكتفى بمجرد العرض، بل إنها أضافت إلى البعد الموضوعى والذى تمثل فى رجوعها واعتمادها على كتابات الفيلسوف ابن باجة، بعداً ذاتياً نقدياً كما قلنا، حين لجأت إلى التحليل والمقارنة والموازنة بين العديد من الآراء والتي تتصل من قريب أو من بعيد بفلسفة أبى بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة. كما قدمت لنا مجموعة من التساؤلات والتأملات حول الاتجاه العقلانى عند هذا الفيلسوف.

ولم تكن تلميذتنا بالأمس وزميلتنا اليوم، الدكتورة زينب عفيفى، على

وعى تام بآراء ابن باجة وحده، بل إنها وإدراكاً من جانبها لأهمية فكرة التأثير والتأثير تأثر ابن باجة بالسابقين وخاصة الفارابي في المشرق العربي وتأثيره فى اللاحقين كابن طفيل وابن رشد، قد رجعت إلى العديد من المصادر والمراجع الخاصة بفلاسفة المشرق والمغرب، لأن فكر الفيلسوف لا يمكن فهمه إلا بعد الإطلاع على أفكار السابقين له واللاحقين عليه أو كما نقول إن من لم يقرأ إلا أفلاطون لا يفهم أفلاطون.

ولعل حرص المؤلف على بيان مدى تأثر ابن باجة بالسابقين عامة. والفارابي على وجه الخصوص، قد أدى بمؤلفتنا الفاضلة إلى أن تكون فلسفة الفارابي موضوعاً لرسالتها لدرجة الدكتوراه، وقد حصلت عليها تحت إشرافى بمرتبة الشرف الأولى من كلية الآداب بسوهاج - جامعة أسيوط (جامعة جنوب الوادى حالياً).

وأحسب أن اتجاه الدكتورة زينب عفيفى فى دراستها عن ابن باجة، للربط بين الماضى والحاضر، الربط بين الأصالة والمعاصرة، قد أدى بها بعد دراستها لابن باجة فى المغرب العربى، وللفارابى فى الشرق العربى - إلى الاهتمام بالقضايا التى أثارها مفكرون فى بلداننا العربية من أمثال الشيخ محمد عبده وعن زكى نجيب محمود وغيرهم من رواد التنوير فى عالمنا العربى.

صحيح أننا نختلف من جانبنا حول رأى أو أكثر من الآراء التى قالت بها المؤلفة أثناء دراستها لمجال أو أكثر من مجالات فلسفة ابن باجة، ولكن هذا الخلاف فى الرأى يعد ظاهرة صحية وليس ظاهرة مرضية إنه يعد دليلاً ودليلاً قوياً على ثراء دراسة الدكتورة زينب عفيفى، التى جمعت فيها كما قلنا بين البعد الموضوعى من جهة، والبعد الذاتى النقدى من جهة أخرى.

لقد حللت المؤلفة الحياة الفكرية فى بلاد الأندلس، وذلك قبل أن تنتقل إلى دراسة آراء ابن باجة الفلسفية فى أكثر المجالات التى اهتم بها، الطبيعة والنفس ومشكلة الاتصال. وقد وقفت وقفة مطولة عند موضوع المدينة الفاضلة عند ابن باجة. ونحن نعلم أن ابن باجة. قد قدم لنا من خلال بعض رسائله الفلسفية ومن خلال كتابه "تديير المتوحد" على وجه الخصوص، تصوراً للمدينة الفاضلة. تصوراً أعلى فيه ابن باجة من شأن العقل والمعقول. تصوراً درس من خلاله أفكار "الغربة"، و"السوابت" وغيرها من أفكار تعد عميقة غاية العمق، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

وقفت الدكتورة زينب عفيفى عند هذه الأفكار وغيرها من أفكار تتعلق بمجالات أخرى تتعلق بفلسفة الطبيعة، وفلسفة النفس عند ابن باجة وقدمت للقارئ العربى مجموعة من التحليلات الدقيقة. وبحيث استطاعت سبر أغوار العديد من أفكار ابن باجة ومدى إمكانية الاستفادة منها فى فكرنا العربى الحديث، إنها أفكار لم يقل بها ابن باجة لكى تظل فى زوايا النسيان والإهمال بل إنها أفكار قد يمكننا الاستفادة منها فى حياتنا الراهنة بصورة أو بأخرى فالعيب كما نقول باستمرار ليس فى التراث ولكن فى الفهم الخاطئ للتراث، الفهم الخاطئ والزائف والذى نجده عند أناس تحسبهم من المفكرين، وهم ليسوا بمفكرين بل اشباه مفكرين.

إن صح تقديرى فسوف تكون هذه الدراسة التى تقدمها لنا اليوم الدكتورة زينب عفيفى فى غاية الفائدة للمهتمين بقضايا الفلسفة العربية عامة، وفلسفة ابن باجة على وجه الخصوص، ومنتظر من المؤلفة الفاضلة تقديم العديد من الدراسات والبحوث العميقة من منطلق قلمها القوى واتجاهها النقدى المستنير.

وأحسب من جانبي أن روح ابن باجة تخلق الآن في السماء وفي سعادة حين تجد أناساً يهتمون بفكره بعد فترة طويلة من التجاهل والنسيان، ظلمنا فيها أفكاره، تلك الأفكار التي تؤدي إلى الانفتاح على أفكار الآخرين، وليس الانغلاق والتفوق، والصعود إلى الهاوية وبئس المصير، وذلك حين نتنفس هواء فاسداً راكداً نتيجة لإغلاق النوافذ والأبواب.

ليست فلسفة ابن باجة فلسفة مغلقة وبحيث يكتنفها الظلام الذي يسود عالم اللامعقول، بل إنها في القاع الخصب من بطن أرض العقل والمعقول، إنها فلسفة تخلق في سماء الفكر التنويري المستقبلي، وما أعظمه من فكر يصلح أن يكون دستوراً لنا في حياتنا التي نحياها، ولكن ماذا نفعل أمام جيوش الظلام وخفافيش الفكر؟ ماذا نفعل ونحن في حياتنا الثقافية نعيش في مجتمع الصراصير حيث التقاتل والتنازع، ولا نعيش في مجتمع النمل والنحل، حيث التعاون والتآلف.

لقد شاء القدر أن أكتب آخر سطور هذا التصدير في الذكرى الخامسة لوقوفى أمام محكمة الجنايات كما أشرت مدافعاً عن قيم العقل والنور ضد نفر ارتضى لنفسه حياة الظلم والظلام. وإذا كان القدر قد شاء أن أكون أول أستاذ للفلسفة في تاريخ مصر العريقة قديمها وحديثها يقف متهماً أمام محكمة الجنايات، فقد شاء القدر أيضاً أن أقوم برثاء فيلسوفنا العملاق ابن باجة ولسان حالي يقول: مرحبا بالموت وما فيه من سعادة وبحيث أتخلص من آلام الحياة وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

لسان حالي يقول مخاطباً روح ابن باجة: اذكريني.

د. عاطف العراقي

مدينة نصر - القاهرة في ١٥ مايو عام ٢٠٠٠م.

مقدمة

تحتل الفلسفة الإسلامية مكانة بارزة في تاريخ الفكر الفلسفى الإنسانى، وعلى الرغم من كثرة البحوث التى تتناول الكثير من الموضوعات فى مجال الفلسفة الإسلامية إلا أن هناك موضوعات وشخصيات لم تدرس بعد الدراسة الدقيقة، من هذه الموضوعات والشخصيات التى لم تدرس بعد الدراسة الدقيقة فلسفة ابن باجة.

وإذا كانت الأندلس امتداداً من القرن الخامس الهجرى وحتى أواخر القرن السادس الهجرى قد زحرت بفلاسفة ثلاثة ذاع صيتهم فى الشرق والغرب وهم على التوالى (ابن باجة - ابن طفيل - ابن رشد) فإن ابن باجة دون نزاع أقل هؤلاء الثلاثة حظاً من البحث والدراسة وإن لم يكن دونهم فى الابتكار والأصالة.

فموضوع هذا الكتاب هو ابن باجة وآراؤه الفلسفية، وهو موضوع لم يظفر بعناية الدارسين رغم أهميته كما ذكرنا سابقاً خاصة وأن ابن باجة يعد أول فيلسوف عربى أندلسى مسلم ظهر فى الأندلس فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس الهجرى، وكان ذلك فى زمن حكم المرابطين للأندلس وهى فترة لم يكن للفكر الحر فيها حظ من الانطلاق وذلك لضعف الحكام المرابطين من جهة، وسيطرة الفقهاء على العقول من جهة أخرى مما جعلهم يحاربون أى نظر فلسفى ومع ذلك فقد كان هناك من هؤلاء الحكام من وجد فى الفكر الفلسفى وسيلة للثقافة وترقية للعقول ولذلك ذاعت شهرة ابن باجة كمفكر وفيلسوف فى بلاطهم، وتمتع بمكانة مرموقة فى مجتمعهم كما ذاعت شهرته من قبل فى بلاط الأندلس ورغم ذلك فقد وقف خصومه له بالمرصاد وقضوا

على طموحه وآماله بالفتن والدسائس وقضى نحبه على أيدي بعض الحاسدين له .

ويعتبر ابن باجة من الفلاسفة الذين كان لهم خطرهم في تاريخ الحياة الفلسفية ذلك أنه يعد بحق أول فلاسفة الإسلام في الأندلس من حيث اتخاذ العقل هادياً ومرشداً له في طريقه الفكرى، فخلع عن الفلسفة الإسلامية سيطرة الجدل وألبسها لباس العلم الصحيح وسار بها في طريق جديد فكان بذلك مخالفاً لمن سبقوه حيث كان هذا الاتجاه العقلى فى الفكر يعد اتجاهاً ضد الميول الصوفية التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت وسادت لفترة من الزمن . والتى كان رائدها المفكر الصوفى أبو حامد الغزالى .

ولا شك أن ثقافته وعلمه وثقابة ذهنه قد جعلته يتمكن من فهم الآراء والفلسفات الإسلامية وغير الإسلامية ونقدها نقداً موضوعياً، فكان له بذلك أهمية من بين مفكرى الأندلس فى نقد المذاهب الفلسفية، ولم تقتصر شهرته على العالم الإسلامى فحسب، وإنما حاز شهرة عريضة فى العالم الغربى المسيحى وبدا تأثيره واضحاً على فلاسفة الغرب (توما الأكوينى - ألبرت الكبير) وبذلك يكون ابن باجة قد مهد السبيل لهذا الاتجاه العقلى الجديد فى الشرق والغرب على السواء .

أما معاصره ابن طفيل فقد أقر فى مقدمة قصته الفلسفية (حى بن يقظان) قائلاً: (ولم يكن فيهم أثقب ذهننا ولا أصح نظراً ولا أصدق رؤية من أبى بكر بن الصائغ).

وقد اعترف بحق ابن باجة وقدره حق قدره تلاميذه ومعاصروه خاصة تلميذه ابن رشد والذى اعترف بقدرته العلمية والفكرية حيث قال فى كتابه تلخيص كتاب النفس: "إن كل ما بينته فى بحث العقل هو رأى ابن باجة" .

وأما تلميذه ابن الإمام فقد مدحه وأظهر تفوقه على معاصريه فى العلوم الفلسفية بما ذكره من أبيات شعرية كانت ذائعة فى تلك الأيام وقد نقلها ابن الإمام:

عد عن البحر وأهواله والبر ما يحويه من معجب
إن شئت أن ترقى محل العلى فاطلب ولا تضجر من مطلب
هذا أبو بكر له حكمة بينها فى مذهب مذهب
أظهر للناس بها آية كأنها معجزة من نبي
ولم تر الأعين من قبله شمساً بدت تطلع من مغرب

ودراسة ابن باجة كفيلسوف ليست بالأمر الهين، ذلك أن قدراً من مؤلفاته عدى عليه الزمن، ولا يعرف إلا بالاسم وما بقى من تراثه الهائل موزع بين المكتبات العالمية. وربما كان ذلك سبباً فى أن ظل مذهبه مجهولاً أو شبه مجهول إذ لم تلق مصنفاته قديماً أو حديثاً عناية تذكر. فقديماً لم يشرحها الشراح كما شرحوا غيره من الفلاسفة كالفارابى وابن سينا فى المشرق وابن رشد فى المغرب ذلك لغموض أسلوبه فى مصنفاته وما يتطلبه ذلك من جهود مضيئة وما ظهر من بحوث فيما قبل لم يتعرض لدراسة حياة ابن باجة دراسة تحليلية مفصلة، كما لم يتعرض للإبانة عن مذهبه أو دراسته دراسة كاملة تضعه فى الموضع اللائق به فى تاريخ المذاهب الفلسفية وإنما اقتصرت بحوثهم على أن يقف على سبيل المثال عند حد دراسة بعض جوانب حياته وثقافته وموضوعات بعض مصنفاته أو تلخيص بعض رسائله. كما أن ضياع جزء كبير من مؤلفاته وتناثر الباقي منها فى أرجاء المكتبات العالمية قد جعل من الصعوبة على الباحثين الوقوف عليها.

وقد دفعتنى الرغبة الصادقة فى العناية بالتراث الإسلامى فأقدمت على اتخاذ "ابن باجة" موضوعاً لهذا الكتاب وكان هدفى من ذلك :

١ - الكشف عن تاريخ حياة ابن باجة ومشاركته فى الحركة الفلسفية فى عصره .

٢ - إظهار مذهبه الفلسفى وإبرازه فى صورة متكاملة الأجزاء راعيت فيها الدقة والموضوعية .

ولذلك قسمت كتابى إلى أربعة أبواب رئيسية :

يتناول الباب الأول دراسة حياته ومصنفاته وسيوضح منها كيف كانت حياته ومكانته العلمية والفلسفية فى المجتمع الأندلسى والمغربى وبالأعلى عليه . فقد كثر أعداؤه وحساده وقضوا عليه قبل ظهور خزائن علمه وحكمته كما سيوضح لنا مدى غزارة إنتاجه الفكرى والعوامل التى ساعدت على فقدان هذا الإنتاج الهائل .

وفى الباب الثانى الذى يدور حول نظرياته فى مبادئ الموجودات والحركة والزمان والمكان واللامتناهى والعالم بقسميه العلوى والسفلى والنفس فى مجالها الفيزيقي والمتافيزيقي سيوضح لنا كيف تعمق ابن باجة فى دراسة هذه الموضوعات وكيف كانت تعبر عن نزعة العقلية الواضحة التى اتسم بها مذهبه عموماً .

أما الباب الثالث من مذهبه وهو الذى يدور حول نظريته فى المعرفة فهو يقوم أساساً على إبراز أهمية الإدراك الحسى كمصدر من مصادر المعرفة ، إلا أن فيلسوفنا لم يقتصر على هذا النوع من الإدراك بل صعد منه إلى الإدراك العقلى الذى يتسم باليقين . كما بحث باستفاضة فى مشكلة أثارها كثير من فلاسفة الإسلام وهى مشكلة الاتصال وبانتهاء هذه المشكلة أكون قد انتهيت من البحث فى نظرية المعرفة التى تضمنها هذا الباب .

وقد انتقلت إلى البحث في الأخلاق والسياسة وهي موضوع الباب الرابع من هذا الكتاب وبينت كيف كانت نظريته في السياسة والأخلاق تقوم على مبادئ عقلية وبحيث استطاعت أن تمثل النسق الفلسفى الذى استخدمه فلاسفة السياسة وأدبائها فى المشرق والمغرب فى أكثر آرائهم ونظرياتهم.

ولعلى بهذا أكون قد درست زوايا فلسفة ابن باجة وأكون قد نظرت إلى مذهبه نظرة أشمل .

وأود أن أنوه إلى أن هذا الكتاب لا يقتصر على دراسة مذهب ابن الصائغ الفلسفى فحسب بل يبحث فى صلته بسابقه ومن جاء بعده من فلاسفة ومفكرين سواء كان مذهبه يتعارض معهم أو يؤيدهم .

وقد عنيت فى الكتاب بإظهار هذا التأثير والتأثير لما وجدناه عند فيلسوفنا من آراء ونظريات سبق للذين جاءوا قبله تقريرها حتى أن مذهبه يمكن أن يعد مصباً لمعظم التيارات الفلسفية والعلمية التى سبقته وأنه استفاد من سابقه، وقد أشار إلى ذلك صراحة فى بعض مصنفاته .

لكن هذا القول لا يطعن فى أهمية فلسفة ابن الصائغ ومكانته فى تاريخ الفكر . إذ أن أى فكرة علمية أو فلسفية يمكن أن نجد لها جذوراً تمتد إلى قديم الزمان .

ورغم ما صادفنى من مصاعب فى دراستى لهذا الموضوع أذكر منها على سبيل الإيجاز لا الحصر صعوبة الحصول على المراجع الخاصة، بابن باجة وهى لم تنشر فى القاهرة . وما نشر منها نشر فى دمشق وبيروت، كما أن صعوبة الحصول على المخطوط منها وهو كما ذكرت مفرق بين أرجاء المكتبات العالمية ناهيك عن صعوبة أسلوب ابن باجة وغموضه فى مصنفاته . لكن ذلك لم يزدنى إلا إصراراً على إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود عسى أن تكون

دراستى المتواضعة بداية لمجهودات غيرى من الباحثين وجذب اهتمامهم إلى تراث هذه الشخصية الثرية التى لم يستطع الزمان أن يدخلها دائرة النسيان بعد أن فرضت نفسها على تاريخ الفكر الفيلسفى الإسلامى فرضاً مما جعلها تحتل مكانتها المرموقة فى هذا التراث خاصة بعد صدور تحقيقات ودراسات حديثة تتناول جوانب فلسفته المختلفة بعد مناقشة رسالتى هذه .

وبعد فقد آثرت أن تتصدر كتابى هذا نفس المقدمة التى بدأت بها رسالتى للماجستير والتى كتبتها منذ أكثر من عشرين عاماً، ورغم أن سنوات الحياة قد أضافت إلى عقلى الكثير من الخبرات وزودتنى قراءتى المستمرة بكل ما هو جديد فى مجال الفكر والثقافة إلا أننى وجدت أن عرض المقدمة كما كتبت فى وقتها وبلغة عصرها قد تكون أكثر تعبيراً عن تكامل الفكرة الفلسفية كما حاولت أظهارها عند فيلسوفنا المغربى أبو بكر بن الصائغ وحتى لا يكون هناك انفصام بين مقدمة الكتاب ومنتها احتراماً منا لعقلى القارئ الواعى وتقديراً لأصالة فكرنا الفيلسفى .

د. زينب عفيضى

مصر الجديدة فى ٢٠٠٠/٧/٥